المسلم الأول

<"xml encoding="UTF-8?>

محتويات [إخفاء]

ولید الکعبة
واستقبل محمد علياً
المسلم الأول
ماذا قَبَسنا من الهدى الإلهي

ولید الکعبة

و اجتمعت قريشٌ حول البيت الحرام ، وكان اجتماعها هذه المرة حافلاً شاملاً ، فقد حضره حتى الشبان ، وحتى الصبيان ، وحتى بعض النساء والولائد ، وكان الحديث همساً أو ما يُشبه الهمس ، وكانت الأبصار شاخصة نحو البيت ، ونحو باب البيت على الخصوص .

إن باب البيت لا يزال موصداً ، لم ينفتح يَبْعدُ عن السر الذي يحتويه .

أتراه ينفتح من تلقاء ذاته كما أوصد من تلقاء ذاته على فاطمة بنت أسد بن هاشم منذ ثلاثة أيام ، أم يبقى موصداً عليها إلى الأبد؟ .

لقد احتجبت فاطمة في الكعبة ، و أوصد رب البيت عليها باب البيت ، حتى أعيى أمر فتحه على السّدَنة ، وعلى الأشدّاء الأذكياء من بني هاشم وبني مخزوم .

أوصد الباب فلم يملك أحدٌ فتحه ، وإذن ففي الأمر سرّ لعله ينكشف بعد قليل . .

وأبو طالب مطرق متأمّل ، يستعرض الحادثة الغريبة ، ويسير أغوارها ، ويقلّب وجوهها . .

فاطمة في جوف الكعبة منذ ثلاثة أيام ، فهي في حاجة إلى الإغاثة ، ولكن كيف الوصول إليها و كيف السبيل ؟ . .

وفاطمة حامل مقرب ، فهي في ضرورة إلى نساء يسعدنها ، ويَلين من أمرها ، ولكن ما الحيلة ؟ .

لقد سدّ باب الكعبة عليها فأعدا على الفاتحين .
هل يشاء ربّ البيت أن تضع فاطمة وليدها في البيت ؟!
إن كانت هذه مشيئته فيا للعناية الكبيرة ، ويا للشرفُ العظيم! .
أم يشاء غير ذلك ؟ . . فله المشيئة والأمر ، وليس لنا إلاّ الخضوع والتسليم . .
مطرق متأمل . . وحوله أفيال قريش وأسياد هاشم ، مطرقون ، ومتأملون . . ينظرون ، وينتظرون . .
ومحمد بن عبد الله يطوف بالبيت ، باسم الثغر ، متهلّل الوجه ، مشرق الأسارير . . ينظر مالا ينظره الجميع ، ويأمل مالا يأملون ، ويفكر في مالا يفكرون!! . . . وانفتح الباب . .
وخرجت فاطمة بنت أسد بن هاشم تحمل على ذراعها وليدها الميمون .
وازدحم الناس يهنّئون فاطمة السلامة ، ويباركون أبا طالب بالوليد ، ويتوسّمون في وجه الوليد شمائل العظمة ، وسمات البطولة ، ودلائل الخير.
واستقبل محمد علياً

واستقبل محمد (صلى الله عليه و آله) علياً (عليه السلام) ، وابتسم النبيّ ، وابتسم الوصيّ ، وابتسم الكون ، والتقت الشفاه الكريمة في قبلة حبيبة . .
نعم ، في فناء الله وفي ظلّ بيته كان لقاؤهما الأول . . ها هنا . .
وفي فناء الله وفي ظل عرشه كان لقاؤهما القديم . .
واحتمل محمد علياً بكلتا يديه ، ورفعه عالياً عالياً يحيّي به الوجود .
وما أسعد الوجود في هذا اليوم ، يستقبل هذه البشرى العظيمة من فم هذا البشير العظيم !! .
رفعه عالياً بيديه ليُري العالمين صنوه يوم ميلاده ، وسيرفعُه عالياً بيديه كذلك ليري العالمين وصيّه يوم استخلافه !! .
وأطلت شعاب مكة ، وهضباتها ، ومشاعرها ، ومواقفها لتبصر كيف اقترن السعد بالسعد ، وكيف اتّحد النور بالنور ، ومحمد قائم على مرقاة الحطيم ، وعلي مائل بين كفّي الرسول ، يبسمان لبعضهما البعض .
إذن فقد اقترب اليوم ، وأشرف العهد، يوم رسالة الحياة، وعهد تبديد الظلمات.
نعم ، لقد اقترب اليوم ، وأشرف العهد ، فليهنأ محمد ، وليبارك علي ، وليسعد شيخ البطحاء بالوليد ، وليُضِف مجداً طارقاً إلى مجد تليد .
لقد اقترب الوعد ، وستكون هذه الهضاب ، وهذه الشعاب ، وهذا البيت مشرق النور ، ومبعث الدعوة ، ومهبط الوحي ، ومصدر الوعي ، فلينتظر العالم ، وليستمع الكون ، ولتزدهِ الحياة . .
ودعوة محمد (صلى الله عليه و آله) مفتقرة منذ يومها الأول إلى ساعد شديد يحمل السيف ، وكفّ قويّ يرفع اللواء .
وماذا يصنع الحق إذا أراد الباطل أن يكمّ فمه حتى لا يجهر بدعوة ، وأن يأخذ عليه سبيله حتى لا يبلغ إلى غاية ؟ .
. . إذا أراد الباطل أن يُوقر الآذان ، ويبلبل الأذهان ، فلا يلقى الدعوة الله سمع ، ولا تنفذ إلى قلب . .
. .اذ أراد الباطل أن يوبئ التربة ، حتّى لا تنمو فيها بذرة ، ولا تخرج منها ثمرة .
ماذا يصنع الحقّ إزاء ذلك إلاّ أن يعتمد العلاجات الحاسمة التي تستأصل الطفيليات ، وتبيد الجراثيم ؟! .
هكذا . . نعم هكذا ، لابدّ للحق من قوّة يدافع بها عن نفسه ، ويناضل بها عن غايته، ولابدّ لمحمد (صلى الله عليه و آله) من عليّ، يشدّ أزره، ويشاركه أمره، ومن أجل ذلك تأخرت دعوة الرسول ثلاثين عاماً حتى ولد ، ثم تأخّرت

بعد ذلك عشرة أعوام حتى نشط.

المسلم الأول

وبُعث محمد بالرسالة ، فكان عليّ أول من صدّق وأوّل من آزر ، وأول من صلّى ، وأول من اقترب ، ولا أستحب أن أقول ما يقوله بعض علماء الحديث وبعض علماء التأريخ : عليّ أول من أسلم.
إن علياً لم يكفر في يوم من الأيام ليقال فيه : علي أول من أسلم.
وكأن علم الحديث ، أو علم التاريخ ، إنما يحاول أن يقول معي : علي هو المسلم الأول ، وفارق كبير بين معنى هاتين الكلمتين.
علي هو المسلم الأول ، بمعنى أنه الذي لم يسبقهُ الى دين الله أحد ممن سبق.
وعلي هو المسلم الأول ، بمعنى أنه الذي لم يضارعه في تطبيق مناهج الله أحد ممن أطاع.
وعلي هو المسلم الأول ؛ بمعنى ، أنه الذي لم يدرك مداه في الاسلام لوجه الله أحد ممن أسلم.
علي هو المسلم الأول بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، وبكل ما ترمز إليه من فضل ، وكل ما تشير إليه من غاية ، فهو السابق إلى كل مكرمة ، والمستأثر بكل منقبة ، و الإسلام مجمع كل أولئك الفضائل.
نعم ، بُعث محمد بدين الحق ، وأنزلت معه شريعة الهدى ، ووضعت أنظمة الحياة ، ووجّه الإنسان بهدى ذلك الدين ، وبرشد تلك النظم الى كماله الأعلى ، واصطفي محمد رسولاً يبلّغ ديناً ، وزعيماً يبني مجتمعاً ويؤسس دولة ويقيم عدلاً ، ومؤدباً يصوغ ضمائر وقلوباً وأخلاقاً ، وقدوة حبيبة تقتدي الناس بأفعاله ، وتصوغ أنفسها على مثاله .
واستخلف محمد علياً على عهده ، وأحلّه منزلته ، واستودعه أمانته ، وحمّله أعباءه ، وأقامه مثالاً صادقاً له ، ولساناً ناطقاً عنه ، وبرهاناً منيراً لدعوته ، يقتدي به المسلمون في كل عمل ، ويفزعون إليه في الملمة ، ويستضيئون برشده في الحيرة ، وفي كل صغيرة وكبيرة .
واستخلف محمد (صلى الله عليه و آله) و علي (عليه السلام) أبناءهما الميامين (عليهم السلام) هادياً بعد هاد ، ونوراً بعد نور ، وصادقاً بعد صادق ، امثلة شاخصة للعدل ، وأدلّة معصومة للحق ، وبراهين نيّرة للإسلام ، وحفظة مأمونة للكتاب .
كانت كل هذه التهيئة لمبدأ الحق . . لمبدأ الإسلام ، ولنشر معالمه ، وبسط سلطانه ، ومدّ نفوذه.

ماذا قَبَسنا من الهدى الإلهي

وجئنا نحن في الأعقاب . .
جئنا بعد كل هذه التهيئة ، وكل هذا الإعداد ، وبعد أن أقام الله لنا اثني عشر دليلاً معصوماً بعد رسوله العظيم ترشدنا إلى دينه القويم . .
فماذا أفدنا من هذا الإعداد ؟.

وماذا قبسنا من هذه الأنوار ؟.

وما هي حصيلتنا من هذه الجهود ومن هذا الجهاد ؟.

نعم ، ما هي حصيلتنا نحن ، فنحن المعنيّون ، ونحن المخاطبون ونحن المسؤولون.

أكلّ حصيلتنا أننا أصبحنا إمّعة تتلاقفنا المبادئ ، وتترّفنا الأهواء ؟! .

تتلاقفنا المبادئ الكافرة ، وتصرفنا الأهواء الحائرة !

ما بهذا بُعث محمد (صلى الله عليه و آله) ، وما لهذا جاهد علي (عليه السلام) ، وما لهذا ناضل أبناؤهما المعصومون (عليه السلام) ودعاة الحق أجمعون.

فهل لنا أن نقف عند حدودنا فنعترف بأننا ظالمون ؟.

لقد كرّمنا الله كرامة ليس فوقها من مزيد لمّا ارتضى لنا أفضل أديانه ، وهدانا أشرف سبله ، واختصّنا بسيّد رسله وبأعظم كتبه ، وميّزنا بسادات أوصيائه وخلفائه.

لقد كرّمنا الله بهذه الخيرة لنا كرامة ليس فوقها من مزيد ، فما بالنا لا نرى أنفسنا أهلاً لهذا التكريم ؟! .

ولماذا نستبدل بالرفعة هواناً و بالسعادة شقاءاً و خساراً .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ 1.

آن لنا أن نقف لنصلح أخطاءنا ، ونتلافى ما فاتنا ، و نصحّح باتباع رسالته ما فسد من أوضاعنا وأعمالنا ، ثم نحمل دعوة الله نبلّغها من حولنا من الأمم.

إن الأمم ممن حولنا تنتظر دعوة الله التي حمّلنا محمد (صلى الله عليه و آله) أعباءها ، وأوضح لنا عليّ (عليه السلام) مناهجها ، وأبان لنا المعصومون من أبناء علي (عليه السلام) أسرارها ، إنهم ينتظرون هذه الدعوة المنقذة المشرقة تصل إليهم من أفواهنا و بأقلامنا و أعمالنا : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ 2.

صدق الله العظيم 3.

_____

1. القران الكريم : سورة آل عمران (3) ، الآية : 185 ، الصفحة : 74 .
2. القران الكريم : سورة التوبة (9) ، الآية : 105 ، الصفحة : 203 .
3. كتاب : من أشعة القرآن القسم الثالث للشيخ محمد أمين زين الدين : العنوان رقم (22) .